

البعد البلاغي والحجاجي للسخرية من منظور التداولية.

"أخبار الحمقى والمغفلين أنموذجاً"

محمد طراد

جامعة الجزائر 1

المقدمة :

تهدف مداخلتنا إلى دراسة كيفية تجلي الحجاج في الخطاب الساخر، وسنركز في ذلك على أهم الدراسات الحجاجية التي تناولت السخرية، لكن قبل أن نتطرق لدراسة الحجاج في السخرية سنقف عند ماهية الحجاج في النقد الغربي.

يثير جورج موليني في القاموس البلاغي [سؤالين: ما هو فن الإقناع؟ والى ماذا يهدف الإقناع؟ أما عن

مفهوم الإقناع يقول موليني: " فن الإقناع هو في نفس الوقت تقنية ومهارة وبراعة فنية راقية. وسيلة

الإقناع هي أساسا اللغة بكل مكوناتها، وبكل أشكالها الخارجية المتغيرة، غير المستقرة، والأكثر حيوية. إن

فن الإقناع هو مجموعة الخطابات المنطقية، التي تجمع اللفظي والنفسي والمنطقي، المعنوي أو العاطفي

والاجتماعي " .2

قبل التطرق للسؤال الثاني يضيف موليني: " يهدف الإقناع إلى إقناع الآخرين بالضرورة، هؤلاء الآخرين

يأخذون أشكال الاستقبال سواء كانوا مستمعين أو قراء، قضاة أو متفرجين. يكون الإقناع إذا من وجهة

نظر المتكلم للتأثير على المستمعين بواسطة خطابه ليعرفهم برأيه، ويوضح لهم شعوره، وجعلهم يشعرون بإرادته، (...) ذلك أن فن الإقناع، يكون للذي يمتلك سلطة كبيرة تجعل الناس يعتقدون أنهم لا يفكرون، وتجعلهم يرغبون فيما لا يحبون أو فيما ليس لهم أي فكرة، وتجعلهم يشعرون بما لم يشعروا به من قبل." 3. يمكننا القول من خلال ما ورد عند موليني أن الإقناع هو حمل شخص على فعل شيء أو حمله على تركه.

قبل التطرق للوظيفة الإقناعية التي تعتبر بعدا من الأبعاد البلاغية أو الحاجية الأساسية في السخرية؛ يتوجب علينا أن نتساءل إذا كانت هناك وظيفة إقناعية في السخرية كيف هي؟ ومما تتكون؟ أو هل يمكننا القول أن للسخرية القدرة على الإقناع؟ وكيف يمكنها إقناع المتلقي بالفضيلة عكس العيوب والنقائص؟ لكي يتسنى لنا أن نجيب على هذه الأسئلة يتحتم علينا أن نعود إلى البلاغة القديمة التي تعرف بفن الإقناع. إن الدور الأساسي الذي ترمي البلاغة إلى تحقيقه هو معرفة السبل والوسائل الإقناعية التي يتخذها المتكلم لتحقيق الإقناع. يتجسد البعد البلاغي في عمق السخرية، في بنيتها الداخلية العميقة. وهو بعد لا يسهل إدراكه ببساطة، لأن البلاغة تتشابه فيها الأبعاد الإقناعية.

يحضر الإقناع في كل الصور البلاغية؛ والسخرية صورة بلاغية يريد فيها الساخر أن يقنع متلقيه بالقيم الايجابية. إلا أن الساخر يريد أن يقنع متلقيه بعكس ما يقول بقوله عكس ما يفكر. تقوم السخرية بالخداع، فالساخر يبرز الشر ليقنع بالخير، يظهر قيمة الخير بنقيضها معتمدا آلية القلب inversion ، وتسميه الينور هجنز " خداع مقصود4. هذا القلب هو ما يقوي ويدعم رأيه. يقول بيرلمان وتيتيكا : " في كل مرة يختلف شخصان حول نفس الشيء، فإنه من المؤكد أن احدهما مخطئ، أو يمكن القول أن لا أحد منهما يملك الحقيقة. لأن لو كانت نظرة أحدهما واضحة، فإنه يمكن عرضها على خصمه بالطريقة التي يتوصل بها إلى تقوية إقناعه" 5.

تعتبر السخرية وسيلة إقناعية على حد تعبير بيرلمان واولبريخت تيتيكا: " إن استخدام السخرية ممكنة في

كل الحالات الحجاجية " 6. كما يؤكد الباحثان بيرلمان وتيتيكا أن السخرية تضطلع بوظيفة أصلية في الخطاب، هي دورها الحجاجي، إذ يسعى الساخر من خلالها إلى إقناع متلقيه بعكس ما يقول، بقوله عكس ما يفكر، ذلك أن الساخر يتعامل في الحقيقة مع حجاج غير مباشر: " بالسخرية نريد أن نسمع عكس ما نريد قوله " 7. بالرغم أن الحجاج في السخرية يصعب إدراكه إلا أنه يمثل نواة بنيتها العميقة، حيث إنّ السخرية تحمل طابع المفارقة الذي ليس إلا طابعا حجاجيا يقول بيرلمان وتيتيكا : " إذا استخدمنا السخرية، هذا يعني أن هناك ضرورة لوجود الحجاج، ذلك أن ظهور التعارض (المفارقة) ما هو إلا طابع دافع لقمة الحجاج " 8.

بينما ألان برونوني نجده يميز السخرية عن الأشكال التعبيرية الأخرى لأنها تحمل في طياتها بعدا حجاجيا، إلا أنها تتعارض مع القيم الحجاجية 9 لأنها حجة غير مباشرة. أما ليندا هونشون فإنها تعتبر السخرية صورة بلاغية مزدوجة في قولها السخرية " لعبة مزدوجة بالفصل والوصل، ومزدوجة السماع، ومزدوجة الحجاج " 10.

إنّ الغاية من استخدام السخرية كوسيلة حجاجية هي التأثير في المتلقي وحمله على الإقبال على القضايا التي يعالجها الساخر، معتبرة السخرية مقوما حجاجيا، لأنها ترد مختصرة ومحدودة وهذا ما يسمح للذاكرة باحتوائها، وهذا مهم في تناقلها وفي تأثيرها.

يعد المتلقي عنصرا فعالا في سير ونمو العملية الحجاجية؛ حيث لا يسهل التأثير عليه، فهو يتأثر بالحجج الموافقة لأرائه ومعتقداته، لأن الحجة غير ملزمة يجوز قبولها مثلما يجوز رفضها، حسب ما يتوافق مع اختيارات المتلقي وآراءه ومصالحه التي يراها مناسبة، كما يمكن لأي كان أن يتقبل حجة ما ويقتنع بها كان يرفضها أو متحفظا منها. وبذلك يتخذ الانتصار على الآخر طابعا حرييا، ويتخذ الإقناع طابعا بلاغيا " 11.

لا يسعى المرسل من خلال خطابه الساخر إلى مجرد إثارة المتعة لدى المرسل إليه أو إيهامه والتحايل

عليه، بل يسعى المتكلم إلى إقناع متلقيه في السخرية بمشاركته في آرائه ويسعى في ذلك إلى إقناعه
باعتقاد حجج الإمتاع والإقناع. " السخرية هي أكثر من مجرد أداة للاسترخاء، و ليست تتميق خارجي
للحجاج وإنما تنتمي إلى بنيته العميقة، وهي أفضل وسيلة لإظهار عدم التوافق بين المتكلم وخطابه...
لأن البلاغة تسعى دوماً لأن تجعل من الحجة الضعيفة حجة قوية "12.

آليات الحجاج في أخبار الحمقى والمغفلين

يعتمد نجاح العملية الحجاجية على مدى ذكاء المرسل وكفاءته على حسن توظيفه " لأدوات أقناع ذات
مرجعية اجتماعية مرتبطة بالقيم الثقافية أو الدينية، أو ذات مرجعية مرتبطة بطبيعة الحجاج كاستعمال
الدليل أو الحجة أو التضليل أو الحيلة" 13. لقد رأينا عند بيرلمان وتيتيكا أن توظيف السخرية هو دليل
على ضرورة وجود الحجاج وإن كنا لا نجد عندهما الحجج التي تعتمدها السخرية. ومن هنا يجدر بنا أن
نتساءل ما هي الحجج التي تتضمنها السخرية؟ للإجابة يجب العودة إلى المدونة لمحاولة استخلاص
الحجج المتضمنة في الأقوال الساخرة، حسب ما ذهب إليه البلاغيون.

تتضمن السخرية بعض الحجج غير المباشرة، وهي حجج مترابطة فيما بينها، ووثيقة الصلة ببعضها
البعض. ومن أهم الحجج التي يعتمدها الساخر كسلاح قوي: التهكم الذي يعتبر وسيلة فعّالة لاستمالة
المتلقي ليقبل على ما يقوله، إن أسلوب التهكم يشوق المتلقي من جهة ويجعله يقبل على البحث عن
المعنى الحقيقي الذي لا تصرح به السخرية. وفي الوقت نفسه يدل حسن استثمار التهكم لإقناع المتلقي
على إثبات ذكاء المتكلم وجديته. وما يساعد المرسل في اختيار حججه وفي حسن توظيفها هو خلفيته
المعرفية ومعرفته بالسياق وعناصره، فقد لا يتمكن من ذلك عند غياب هذه المعرفة " إذ تقتصر همته دون
حججه ويغيب عنه ما لو بدا له لعذر نفسه " 14.

ومن خلال قراءتنا مرارا لكتاب أخبار الحمقى والمغفلين ننسب إلى ابن الجوزي لم يؤلف كتابه للمتعة
وإنما يريد به معالجة الظواهر الغريبة التي تفشت في مجتمعه، المتمثلة في تغلغل المغفلين في شتى

مجالات الحياة واحتلال مناصب هامة في التعليم والقضاء والقراء...، ويسعى وراء ذلك إلى التحذير من الحمق والتغفيل، وينبه إلى خطورة الوضع الذي آلت إليه البيئة العباسية.

من أهم الآليات الحجاجية التي اعتمدها ابن الجوزي في معالجة ظواهر الحمق والتغفيل في كتابه الحجاج بالمغالطة: يعد هذا النوع من الحجاج من أهم الوسائل الحجاجية في السخرية، ففي المثال التالي:

" أعرابي صالح ومغفل: وكان أعرابي يصلي فأخذ قوم يمدحونه ويصفونه بالصلاح فقطع صلاته وقال: مع هذا إني صائم! تذاكر قوم قيام الليل وعندهم أعرابي فقالوا له: أتقوم بالليل قال: أي والله قال: فما تصنع قال: أبول وأرجع أنام" 15.

يلاحظ في هذا المثال أن الحجة الأولى صحيحة (.. وكان أعرابي يصلي...) ولذلك أخذ قوم يمدحونه ويصفونه بالصلاح، وهذه حجة مناسبة، ولكن النتيجة خاطئة حيث أن الأعرابي قطع صلاته وقال: مع هذا إني صائم! إلا أن الأعرابي المغفل ضلّ وخدع من مدحه، بقوله انه لا يصلي فقط بل هو صائم أيضا، وإن كان قطع الصلاة لا يناسبه.

ينعكس سلوك المرسل إليه على المرسل في بناء حججه، ذلك أن المرسل يكون شديد الحرص على مراعاة أحوال المرسل إليه وظروفه، كما يستحضر قدراته المعرفية و كفاءته؛ إذ نجد المرسل ينتج خطابه انطلاقا من رد فعل المرسل إليه. حيث يستند المرسل على سلوك المرسل إليه ليثبت حججه ويقنعه

لتصديقها وتقبلها. إن الأعرابي يصلي ويصوم لذلك سأله القوم الذي مدحه إن كان يقيم الليل بقولهم: "أتقوم بالليل؟" ليكون جوابه بالإيجاب بقوله: "أي والله". وفي هذا المستوى فإن النتيجة صحيحة ومتوقعة. وبذلك تكون هذه الحجة خدعة ثانية تدفع القوم للاستفسار عما يقوم به من عبادات بقولهم: "فما تصنع" إلا أن نتيجة الحجج السابقة خاطئة وغير مناسبة لتوقعات القوم الذين مدحوا الأعرابي ووصفوه بالصلاح، فكان جوابه: "أبول وأرجع أنام". تدل حجة الأحمق على قصور في تفكيره، وبذلك يتبين للمتلقي أن جواب

الأعرابي دليل على حمقه وغفلته.

تتناقض أقوال المتكلم وأفعاله حيث كان من المتوقع أن يكون الأعرابي الصالح الذي يمدحه القوم يصلي، (وليس من اللائق به أن يقطع صلاته) ليقول: " مع هذا إني صائم! " ليغالط ويخادع المتلقي أنه لا يصلي فقط بل هو يصوم أيضا. وهذه الحجة الأولى بالمغالطة، مهدت للسؤال التالي في كون هل الأعرابي يقوم بالليل، وكان القوم يتذكرون قيام الليل وهي حجة مناسبة لمقام الحديث عن العبادة، فكان الجواب متوقعا وقد أكده الأعرابي بقوله " أي والله" وهذا التوكيد حجة ثانية بالمغالطة، إلا أن هذا الحجاج يخلص لنتيجة خاطئة وهي أن الأعرابي الذي يصلي، ويصوم، ويوصف بالصالح، لا يقوم بالليل للعبادة وإنما أجاب حينما سئل: فما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام. ويبدو أن المغالطة والخداع والتضليل من الآليات الحجاجية التي تزيد من فعالية السخرية؛ إذ تبين أن الأعرابي الصالح، لا يقطع صلاته، ولا يقيم الليل فقط، وإنما هو صالح لكنه مغفل.

السلام الحجاجية

" إن الحجة التي تفرض نفسها هي التي تثبت، وهي التي تعد من أقوى الحجج لذلك يعتمد المرسل ترتيب الحجج التي تدعم دعواه حسب قوتها، وهذا ما يعرف بالسلام الحجاجي وهو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين:

أ- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب- كل قول في السلم دليلا على مدلول معين، كما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه وله ثلاثة قوانين، هي: قانون الخفض - قانون تبديل السلم - قانون القلبص " 16. وسنحاول أن نقف عند بعض القصص التي تتجلى فيها السلام الحجاجية ففي قصة صلب الميت عن جحا:

" أن أحد جيرانه مات، فذهب إلى حفار القبور ليتفق معه على تجهيز القبر، وجرى بينهما لجاج حول

الأجر، فتركه جحا وذهب إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها، ولما سئل عنها قال: الحفار لا يحفر بأقل من خمسة دراهم، وقد اشترينا هذه الخشبة بدرهمين لنصلبه عليها ونريح ثلاثة دراهم..

والمرحوم، جاري، يستريح بهذه الطريقة من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير! " 17.

إنَّ صلب الميت غير لائق بالمؤمنين إلا أن المرسل اتخذها مسندا في ترك دفع أجرة حفر القبر. واختيار المرسل لحجته "صلب الميت" لا تتركز على مطابقتها للواقع وإنما يعود هذا الاختيار إلى نتيجة محددة لدى المرسل و هو دفع أقل مما يطلب حفار القبور وجعلها حجة أقوى؛ إذ عمد المرسل (جحا) إلى رفع غلاء أجرة حفر القبر في أعلى السلم الحجاجي. وجعلها حجة أقوى ثم عمد إلى جعل انخفاض ثمن شراء الخشبة بدرهمين، وبذلك يريح ثلاثة دراهم، كما ربط فعل الدفن (حفر القبر) بضغط التراب، والحساب الذي وصفه بالنكر والنكير، وجعله في أقل مرتبة إلى جانب غلاء الثمن. وبذلك يكون جحا قد اقنع نفسه قبل غيره بضرورة صلب الميت، واستبعاد فكرة الدفن التي ترتبط بغلاء الثمن بالإضافة إلى أن المرحوم إذا صلب يكون قد استراح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير! كما أغفل جحا الحجج التي لا تدعم موقفه، كعدم الإشارة مثلا إلى ما تتطلبه عملية الصلب سوى حصره في عدم ارتفاع ثمن شراء الخشبة.

الحجاج بالروابط الحجاجية:

" يكمن دور الروابط الحجاجية واستثمار دلالتها في ترتيب الحجج، ونسجها في خطاب واحد متكامل، إذ تفصل مواضع الحجج، بل وتقوّي كل حجة منها الحجة الأخرى " 18. تساهم الروابط الحجاجية في الحفاظ على انسجام النصّ واستمراريته، كما تساهم في تدريج الفهم ونموه، وهذا كلّ من أجل خدمة الغاية الحجاجية التي من أجلها أنتج الخطاب. ومن أهم الروابط الحجاجية التي لها دور هام في قلب النتائج المتوقعة الرابط الحجاجي " لكن. "

يبين ديكر أن " لكن " تحمل مثل كل الروابط الحجاجية وظيفتين وهما: تربط وحدتين لسانيتين أ و ب. وتقوم بوظيفة حجاجية للوحدات اللسانية التي تربطها " 19. سنحاول أن نبين كيف تتجلى " لكن " في

القصة الموالية:

" مغفل يعاتب ربه: وكان لبعض المغفلين حمار فمرض الحمار فنذر إن عوفي حماره صام عشرة أيام. فعوفي الحمار فصام فلما تمت مات الحمار فقال: يا رب تلهيت بي! ولكن رمضان إلى هنا يجيء" 20. نذر المغفل الذي كان له حمار مريض إن شوفي حماره سيصوم عشرة أيام. وكانت الجملة مسبوقه بأداة شرط "إن"، ففعل الصوم مقرون بتحقق فعل شفاء الحمار، وكانت النتيجة أن الحمار قد شوفي. إذ يتحقق فعل الصوم الذي نذر به المغفل. لكن عند تمام صيام عشرة أيام توفي الحمار، وبذلك فان الصوم الذي نذر به لم يحقق النتيجة المتوقعة، وهو شفاء الحمار وعافيته، وجاء الرابط الحجاجي "لكن" ليقلب النتيجة المنتظرة، تستند إلى سند مضمّر بقوله: « ولكن رمضان إلى هنا يجيء» يوحي الملفوظ باقتضاء مفاده لن أصوم رمضان المقبل، وهو بذلك تتأسس علاقة التناقض التي ربطت الحجج بالنتيجة. الحجج الجاهزة: تعد الشواهد من الحجج الجاهزة التي ينقلها المرسل على لسانه وهي من الحجج القوية التي تدعم حجاجه. و نقلها على لسانه يدل على براعته وقدرته على حسن توظيفها حسب ما يتطلبه السياق الذي تجري فيه العملية التواصلية،" وبهذا فهي تعلقو الكلام العادي درجة،مما يجعلها ترقى في السلم الحجاجي إلى ما هو أرفع" 21.وتكمن أهمية الاستشهاد في الخطاب الساخر في القدرة على التأويل المتعدّد الأصوات،وعلى تأويل الخطاب المروي على حدّ سواء،ويتعمّد الساخر،نقل خطاب متكلم ما بغرض تبني أفكاره والاختفاء وراءها من المعارضة.لقد اعتمد ابن الجوزي على توظيف كل الحجج الجاهزة التي تناسب المواضيع التي تخدم وتزيد من فعالية السخرية، فقد اعتمد الآيات، الحديث، الشعر، الأمثال.

الحجاج بالقرآن الكريم

من بين الحجج الجاهزة التي لا يمكن الطعن فيها، الاستشهاد بالقرآن الكريم. لأن " من شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحُجّة،وقطع النزاع،وإذعان الخصم "22؛ فالاستشهاد بالنصّ الديني يشكّل حجة لا

يمكن دحضها أو إعادة النظر فيها. وقد أكثر ابن الجوزي من استعمال الحجج الدينية لأن الاستشهاد بالقرآن هو الدعامة التي ترتكز عليها مصادر الاستشهاد الأخرى. ويمثل الحقيقة المطلقة التي تتأسس عليها مقدمات الحجج.

ذكر ابن الجوزي أن "القرآن الكريم حدثنا عن بعض المغفلين" 23. يمثل هذا القول حجة قوية، يضم بها ابن الجوزي موضوعه لموضوع القرآن الكريم، ويذكر في الباب التاسع: "في ذكر أخبار جماعة من العقلاء صدرت عنهم أفعال الحمقى وأصرروا عليها مستصوبين لها فصاروا بذلك الإصرار حمقى ومغفلين". أول العقلاء الحمقى وهو إبليس يقول ابن الجوزي: " أول العقلاء الحمقى إبليس فأول القوم إبليس فإنه كان متعبداً مؤذناً للملائكة فظهر منه من الحمق والغفلة ما يزيد على كل مغفل فإنه لما رأى آدم مخلوقاً من طين أضمر في نفسه لئن فضلت عليه لأهلكه ولئن فضل علي لأعصينه. ولو تدبر الأمر لعلم أنه كان الاختيار قد سبق لآدم لم يطق مغالبتة بحيلة ولكنه جهل القدر ونسي المقدار. اعترض على حكمة الله: ثم لو وقف على هذه الحالة لكان الأمر يحمل على الحسد ولكنه خرج إلى الاعتراض على المالك بالتخطئة للحكمة فقال: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾ والمعنى لم كرمته ثم زعم أنه أفضل من آدم بقوله: ﴿ خلقتني من نارٍ وخلقته من طين ﴾ ومجموع المندرج في كلامه: أني أحكم من الحكيم وأعلم من العليم وأن الذي فعله من تقديم آدم ليس بصواب هذا وهو يعلم أن علمه مستفاد من العالم الأكبر فكأنه يقول: يا من علمني أنا أعلم منك ويا من قدر تفضيل هذا علي ما فعلت صواباً.

رضي بإهلاك نفسه: فلما أعيته الحيل رضي بإهلاك نفسه فأوثق عقد إصراره ثم أخذ يجتهد في إهلاك غيره ويقول لأغوينهم وجهله في قوله ﴿ لأغوينهم ﴾ من وجهين أحدهما: أنه أخرج ذلك مخرج القاصد لتأثر المعاقب له وجهل أن الحق سبحانه لا يتأثر ولا يؤذيه شيء ولا ينفعه لأنه الغني بنفسه. والثاني: نسي أنه من أريد حفظه لم يقدر على إغوائه ثم انتبه لذلك فقال: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ فإذا كان

فعله لا يؤثر وإضلاله لا يكون لمن قدرت له الهداية فقد ذهب علمه باطلاً.

رضي إبليس بالخساسة: ثم رضي لخساسة همته بمدة يسيرة يعلم سرعة انقضائها فقال: ﴿انظرني إلى يوم يبعثون﴾ وصارت لذته في إيقاع العاصي بالذنب كأنه يغيظ بذلك ولجهله بالحق أنه يتأثر ثم نسي قرب عقابه الدائم فلا غفلة كغفلته ولا جهالة كجهالته وما أعجب قول القائل في إبليس:

عجبتُ من إبليس في نخوته وخُبتُ ما أظهر من نيته

تاهَ على آدم في سجدةٍ وصار قواداً لذريته " 24

سبق لابن الجوزي أن حذر من مكائد إبليس وصنوف غروره في كتاب تلبيس إبليس. يخصص في كتابه أخبار الحمقى والمغفلين حديثاً عن قصة إبليس لأنه من أشد الأعداء خطورة، وقد استدل على الصفات التي رصدها لإبليس من الآيات، كل آية قرآنية تمثل حجة على مجموعة من الصفات التي تؤكد جهل وغفلة إبليس وحمقه، وقد استشهد ابن الجوزي بالآيات القرآنية التي كانت له سندا في بناء حججه، في إسناد صفة الغفلة والجهل لإبليس، وان كانت قصة إبليس تدخل في الثقافة المشتركة والموسوعة المعرفية، إلا أن ابن الجوزي قد بين للمتلقي غفلة إبليس من خلال ثلاث حجج رئيسية استنبطها من الآيات التي ترتبط بمعاني الحجج المذكورة.

اعتمد ابن الجوزي في تحديد الحجج السابقة على التمهيد للآية التي أتى بها كحجة للاستدلال على الصفات المنسوبة لإبليس، ثم شرح معنى الآية وذلك لغاية حجاجية تتمثل في شد لفت انتباه المتلقي واستدراجه لاستيعاب تفاصيل القضايا المطروحة في الآية القرآنية، ولا يخفى علينا أن ابن الجوزي إمام، له خبرة ودراية في طرح القضايا الدينية، وهو واعٍ بضرورة توضيح ما قد يكون مستغلقاً على المتلقي باختلاف قدراته وباختلاف مستوياته. فقد بين كيف اعترض إبليس على حكمة الله، وهي حجة والى على غفلة إبليس، بالآيتين ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾، ﴿خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾، ثم يشرح ابن الجوزي معاني الآيتين بقوله: «مجموع المندرج في كلامه: أني أحكم من الحكيم وأعلم من

العليم وأن الذي فعله من تقديم آدم ليس بصواب هذا وهو يعلم أن علمه مستفاداً من العالم الأكبر فكأنه يقول: يا من علمني أنا أعلم منك ويا من قدر تفضيل هذا علي ما فعلت صواباً».

بيّن ابن الجوزي كيف رضي إبليس بإهلاك نفسه، وهي الحجة الثانية التي تؤكد حمق إبليس بالآيتين الكريمتين ﴿لأغوينهم﴾ ، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ثم يشرح المعنى الذي يربط الحجة بالآيتين بقوله: «فإذا كان فعله لا يؤثر وإضلاله لا يكون لمن قدرت له الهداية فقد ذهب علمه باطلاً».

أما الحجة الثالثة، هي رضا إبليس بالخشاسة. ويستدل على ذلك بالآية الكريمة ﴿انظرنى إلى يوم يبعثون﴾ ليخلص بذلك إلى معنى الآية الذي يتعلق برضا إبليس بالخشاسة بقوله: «وصارت لذته في إيقاع العاصي بالذنب كأنه يغيظ بذلك ولجهله بالحق أنه يتأثر ثم نسي قرب عقابه الدائم». ويخلص بذلك إلى القضية التي انطلق منها وهي جهل وغفلة حجا، بقوله: «فلا غفلة كغفلته ولا جهالة كجهالتهويكون بذلك ابن الجوزي قد اتخذ من القران الكريم وسيلة قوية يقنع بها المتلقي بغفلة وجهها إبليس، كما ساهم في تقريب معاني الآيات بشرحها وتقريبها من ذهن المتلقي، ويختم ابن الجوزي خلاصة الحجج التي قدمها ببيت شعري في غاية الخفة والبساطة، ونلمح من خلال ذلك توفر قصدية المتكلم في إقناع السامع، حيث استثمر ابن الجوزي كل الوسائل التي تمكنه من إفادة المتلقي وإقناعه.

اعتمد ابن الجوزي في بناء حجاجه على إستراتيجية حجاجية عكسية حيث يقدم أولاً النتائج، ثم الآيات، ثم الشرح الذي يربط النتائج بمعاني الآيات، ويكون بذلك قد أولى أهمية أولاً لإبراز الصفات التي تجعل من إبليس مغفلاً، ثم الاستدلال على أقواله بآية قرآنية، ولكي يقرب لذهن المتلقي علاقة الصفة المنسوبة لإبليس والآية التي استشهد بها، يشرح لجوزي معنى الآية. ليخلص بذلك إلى النتيجة التي انطلق منها. اعتمد ابن الجوزي الشرح والغاية من ذلك هي حمل المتلقي على تمثّل قصة إبليس وتصورها في ذهنه لأنها من الأمور الغيبية. ويسعى ابن الجوزي لإقناع متلقيه بأن إبليس من أكبر أسباب هلاك الإنسان، فقط تسلط إبليس عليه وتوغّد هذا المخلوق الذي فضل عليه، وأصرّ على أن يضل به ويهلكه من أجل

ذلك حذر الله عباده منه اشدّ تحذير، ولإبليس طرق شتى لإضلال الإنسان، وذلك من صميم عمله الذي ينصب على إغواء بني ادم، باستعمال مختلف الطرق والوسائل، حتى يبلغ مراده المتمثل في إهلاك الإنسان، وقد صور القرآن الكريم مختلف تلك الأساليب، وكشف غروره، وبين خطورته ليحذر منه الإنسان. وكانت غاية ابن الجوزي في رصد السمات التي يتصف بها إبليس وتحليلها إنما تتحدد بإقناع المتلقي وتحذيره من شرور الشيطان وشدة خطورته عليه.

وظّف ابن الجوزي الشواهد الدينية، واستشهد بكثير من الآيات القرآنية، ويقصد بها التأثير والاستدلال والإقناع، لأنها تحقق له هدفا حجاجيا مدعما لحججه، وتؤهله للتأثير في المتلقي، وبذلك تكون هذه الشواهد دعائم لبنية الخطاب الحجاجي. " قال أبو الفضل الصوري: ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته، والتمثّل بنواهيته وأوامره، والتدبّر لقوارعه وزواجره، وهو حيلة الرسائل وزينة الإنشاءات؛ وهو الذي يسدّ فؤى الكلام، ويثبت صحته في الأفهام؛ فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن، عارية من الفضائل: لأنه الحجة التي لا تُدحض، والحقيقة التي لا تُرفض" 25. فتأثير القرآن الكريم على المتلقي يكون أوفى وأبلغ من أي حجة. كما يمكننا القول أن ابن الجوزي يدرك أن الله سبحانه وتعالى قد حمل العلماء أمانة القرآن الكريم، الذي يجب أن يكون مرجعا في معالجة كل القضايا التي تشغل الإنسان. وبمكنا القول أن ابن الجوزي ليس مجرد ساخر يستشهد بالقرآن الكريم وإنما هو يفقه خفايا ومعاني كلام الله لأنه يشتغل به؛ " والناس في استخراج معاني القرآن الكريم، واستعمالها في الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم" 26. ولكون ابن الجوزي إمام، له رسالة توجيه الناس إلى ما فيه الصلاح، كما يدرك جيدا أن الإنسان يملّ من أسلوب النصيح، ويقبل بصدور رعب على المواقف الساخرة ويأخذ منها العبرة بلا ملل. في ذلك فطنة ذكية، يبين بها ابن الجوزي صحة ما يدعو بالأدلة والبراهين، ويفقه قول الله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾.

الحجاج بالحديث

عمد ابن الجوزي، ضمن بناء حجاجه، على استحضار أصوات أخرى يدعم بها مواقفه، وهي أصوات تعتبر حججا، تدعم حججه وتقويها، ولعل أهم صوت يمكنه من الاستدلال على قضاياها هو صوت الرسول عليه السلام. الذي " يحتج بمكان الحجة، ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبيّن كلامه على أصل لا يُزلزل، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يضل عنه؛ فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت الحجة، وسلّم له الخصم، وأذعن له المعاند... " 27.

وظّف ابن الجوزي الأحاديث النبوية الشريفة في عدة مواضع وفي مختلف مراحل وأبواب كتاب أخبار الحمقى والمغفلين، ليستدل بها على قضاياها وأقواله، نظرا للمكانة التي تحظى بها أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم في نفس ابن الجوزي وفي نفوس المتلقين وما لها من أثر كبير على سلوكاتهم؛ فالرسول الكريم أوتي جوامع الكلم، قال عنه الجاحظ: " لم يتكلم إلا بكلام قد خفّ بالعصمة وسيد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق. هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام. لم تسقط له كلم، ولا زلت به قدم، ولا باعت له حجة... " 28.

نظرا لسمو مكانة الحديث في الأدب والبلاغة عامة " ... فإن أرباب البلاغة والأدب، وجدوا في الحديث مادة جيّدة لبلاغتهم وأدبهم يترسمون أثره وينسجون على منواله،... " 29. فأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم تضيء على أقوال البلغاء القوة والفضل والحجة والبرهان.

ومما أورده ابن الجوزي من أحاديث رسول الله عن التغليف الذي يمثل الموضوع الأساسي الذي بني عليه موضوع أخبار الحمقى والمغفلين، حديث رسول صلى الله عليه وسلم عن تغفيل عابد قديم التي يعتبرها من أعجب تغفيل القدماء، الذي رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله، لأنّ الاستشهاد ذاته هو خطاب مروى عن شخص آخر، وبذلك ذكر صحة الإسناد الذي يمثل حجة على صحة حديث رسول الله. لأن " الاستشهاد في تعريفه الشائع هو إيراد قول لشخص معين يقوم مقام الحجة بالضرورة والقوة " 30. يقول

ابن الجوزي : " هذا ومن أعجب تغفيل القدماء ما روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تعبد رجل في صومعة فأمطرت السماء فأعشبت الأرض فرأى حماراً يرعى فقال: يا رب لو كان لك حماراً رعيته مع حماري فبلغ ذلك نبياً من أنبياء بني إسرائيل فأراد أن يدعو عليه فأوحى الله تعالى إليه إنما أجزى العباد على قدر عقولهم " 31. فهذا رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، يروي عن صدرت عنهم أفعال التغفيل، والغاية من ذلك تخضع أساساً لاستراتيجيات حاجية مقصودة تستهدف المتلقي، " إذ تكتسب الحجج قوتها من قوة مصادرها "32. وبذلك تضيء أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم نوعاً من المصادقية على أخبار ابن الجوزي عن المغفلين الذين تتبع أثرهم في كافة شرائح المجتمع، لأن أقواله عليه الصلاة والسلام تعتبر مرجعيات عند المرسل إليه.

الحجاج بالشعر:

ظل الشعر خطاب الأمة العربية حتى ظهور الإسلام، " الشعر علم العرب الذين لم يكن لهم علم أصح منه فكانت للأسلوب والعبارة الصدارة " 33. ومن الشائع: " الشعر ديوان العرب"، وهذه المقولة لها دلالتها في الاعتراف بسلطة الشعر وعلو مكانته عند العرب، فهو دستورهم ومرجعهم الأساسي وهو من الشواهد الحاجية التي لا يستغني عنه العربي في خطابه. يقول عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز عن الشعر " هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يُشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيها قصب الرهان ثم بحث عن العلل التي كان بها التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض " 34.

كان الشعر من أهم الوسائل لفهم القرآن الكريم، والإجابة عن استفسارات الناس المتجددة، وبذلك مدَّ الشعر العربي حركة التفسير القرآنية، كما مدَّ هذا الشعر معاجم اللغة وكتب النحو والصرف والبلاغة بشواهد غزيرة تساهم في تأصيل علومها. وقد كان للعلماء في هذه الخطوات دورٌ كبير في سدِّ أبواب الانتحال والوضع؛ ليكون الاستشهاد مبنياً على أسس صحيحة، وتتلخص لنا مزايا الشعر كما وردت في

صبح الأَعشى: " الشعر... له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره... مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، مع طول بقائه على ممرّ الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوله على السنة الرواة، وأفواه النقلة لتمكّن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلّق بعضها ببعض، مع شيوعه واستفاضته وسرعة انتشاره وبعده مسيره وما يؤثّر من الرّفعة والضّعة باعتبار المديح والهجاء، وإنشاده بمجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعة بالتقريظ وتعداد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المُجيد من الحياء الجسيم والمنح الفائق، الذي يستحقّه بحسن موقع كلامه في النفوس وما يحدثه فيها من الأريحية،... وكونه ديوان العرب ومجتمع تمكّنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها- إلى غير ذلك من الفضائل الجمّة، والمفاخر الضخمة " 35.

لقد اعتبر القلقشندي الشعر من أهم وسائل الكتابة بعد القرآن الكريم والحديث الشريف في قوله: " فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأخبار النبوية، على قائلها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصاً أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم، ومستودع حكمهم، وأنفس علومهم في الجاهلية؛ به يفتخرون، واليه يحتكمون. فإذا أكثر من حفظ الشعر وفهم معانيه، عزّرت لديه الموادّ، وترادفت عليه المعاني، وتواردت على فكره، فيسهل حينئذ حلّها، ووضعها في مكانها اللائق بها حسب مقتضيات الكتابة " 36.

وظّف ابن الجوزي الكثير من الأبيات الشعرية في كل أبواب الكتاب، وهو يدري مدى ارتباط أدنّ العربي بالإيقاع الشعري، فيقبل على ما يسمع، بل لا يصعب عليه حفظ وترديد ما التقطته أذنه. وقد كان ابن الجوزي يدري مدى تأثر العرب للكلمة البليغة الجميلة، التي لها في نفوسهم أثر السحر حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إن من البيان لسحرا»

أورد الأبيات الشعرية في مقدمة الكتاب التي يذكر فيها ابن الجوزي فوائد السخرية في الترويح عن النفس، ويذكر حب العلماء الأفاضل المُلح* لأنها تريح القلب من كدّ الفكر، ومن الشواهد الشعرية التي استند إليها ابن الجوزي في تأكيد حسن وقع السخرية التي ترد شعرا في نفوس العلماء قوله: « وعن الأصمعي قال:

أنشدت محمد بن عمران التميمي قاضي المدينة وما رأيت في القضاة أعقل منه:

يا أيها السائل عن منزلي نزلت في الخان على نفسي

يغدو علي الخبز من خابزٍ لا يقبل الرهن ولا ينسي

أكل من كيبي ومن كسوتي حتى لقد أوجعني ضرسي

فقال: أكتبه لي قلت: أصلحك الله إنما يكتب هذا الأحداثُ فقال: ويحك أكتبه فإن الأشراف تعجبهم

الملاحظة"37.

يستشهد ابن الجوزي بشعر الأصمعي الذي يتفعم بالسخرية. ليبين أن السخرية هي أداة كبار الشعراء. كما

يستشهد أيضا برأي الأصمعي في القاضي الذي أنشد له الشعر يقول الأصمعي: «وما رأيت في القضاة

أعقل منه». استند ابن الجوزي إلى قول الأصمعي لإثبات قدر القاضي الذي يتخذه أيضا كحجة أساسية

في الاستدلال على فوائد السخرية وآثارها الإيجابية على المتلقي؛ لأن ابن الجوزي يدرك مكانة الأصمعي

الذي يعتبر حجة في الشعر العربي، فقد كان يُلقب (شيطان الشعر). وقال عنه الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم

بالشعر من الأصمعي. ويستدل بقول القاضي: " فإن الأشراف تعجبهم الملاحظة». لان ابن الجوزي يدرك

جيذا أن المتلقي يعي صواب ما يصدر عن العالم أو القاضي اللذين لهما مكانة ومنزلة رفيعة في

المجتمع. ويضيف ابن الجوزي بقوله: «فقد بان مما ذكرنا أن نفوس العلماء تسرح في مباح اللهو الذي

يكسبها نشاطاً للجد فكأنها من الجد لم تزل قال أبو نواس:

أروح القلب ببعض الهزل تجاهلاً مني بغير جهل

أمزح فيه مزح أهل الفضل والمزح أحياناً جلاء العقل" 38

يتخذ ابن الجوزي من شعر أبي نواس ومن شخصه حجة الاستدلال على قوله: " أن نفوس العلماء تسرح

في مباح اللهو الذي يكسبها نشاطاً للجد فكأنها من الجد لم تزل». فأبو نواس من أشهر شعراء العصر

العباسي قال فيه ابن المعتز في كتابه "طبقات الشعراء": «كان أبو نواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام

والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ. ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وقد تأدب بالبصرة، وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين. (...). تفرغ للنوادر والمجون والملح، فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس، ثم أخذ في قول الشعر، فبرز على أقرانه، وبرع على أهل زمانه. ثم اتصل بالوزراء والأشراف، فجالسهم وعاشرهم، فتعلم منهم الظرف النظافة. فصار مثلاً في الناس، وأحبه الخاصة والعامة " 39. لقد اتخذ ابن الجوزي من الشعر وسيلة لإقناع المتلقي في مقدمة كتابه التي تعد العتبة التي يدخل من خلالها المتلقي إلى عالم أخبار الحمقى والمغفلين.

نظراً لأهمية الشعر في الثقافة العربية، وقد رأينا في الأمثلة السابقة الأهمية التي يتحلى بها الشاعر وأثره البالغ في نفوس الناس؛ فقد خصص ابن الجوزي الباب التاسع عشر، في ذكر من قال شعراً من المغفلين، سنقف عند بعض الحمقى الذين قالوا شعراً لتعرف الغاية التي أرادها ابن الجوزي بذكر فئة المغفلين الذين قالوا شعراً.

ذكر ابن الجوزي شعراً لأحد المغفلين، الذي وصف الأمير بالسنور ووصف أعدائه بالفئران: « الأمير كسنور وأعداؤه كالفئران: عن أبي الحسن علي بن منصور الحلبي قال: كنت أحضر مجلس سيف الدولة فحضرته وقد انصرف من غزو عدو له ظفر به فدخل الشعراء ليهنئوه فدخل رجل وأنشد قائلاً:

وكانوا كفارٍ وسوسوا خلف حائطٍ وكنت كسنورٍ عليهم تسلقا

فأمر سيف الدولة بإخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة ببيكائه فأمر برده فقال: ما لك تبكي؟ فقال: " قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه فلما خاب أملي وقابلني بالهوان ذلت نفسي فبكيت فقال له سيف الدولة: ويحك من يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم! فكم أملت قال: خمس مائة درهم فأمر له بألف درهم " 40.

تحيلنا هذه القصة التي قال فيها أحد المغفلين شعراً في مدح الخليفة، إلى ظاهرة التكسب بالشعر، واتخاذ

وسيلة للحصول على المال، وهي ظاهرة بارزة في الشعر القديم. اتسعت دائرة التكسب بالشعر في العصر الأموي والعصر العباسي. وبات غرض المدح من الأغراض الشعرية التي يتكسب بها الشعراء ويتقربون بها من الملوك وأصحاب النفوذ؛ فكثر التنافس الشديد بين الشعراء في مدح الخلفاء " لأنهم أصحاب الدولة وفي أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كيلاً، فكان طبيعياً أن يكثر مدحهم ودعاتهم، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظهرون غير ما يُبطنون، فيمدحون هذا الخليفة العباسي أو ذاك لقاء ما يُنشر عليهم من دراهم ودنانير " 41.

لكن إذا لم ينل المادح من ممدوحه ما يرضيه من العطاء، انقلب عليه هاجياً مشنعاً. وإذا لم يقل الشاعر ما يرضي الخليفة صرفه ولم يكافئه، مثلما حصل مع مادح سيف الدولة الذي لم يرضيه تشبيهه بالسنور وأعدائه بالفئران؛ فأمر سيف الدولة بإخراجه. ولما كانت المادة وحدها هي غاية الشاعر، ظهر فيه الخلل والقصور. فخاب ولم يحصل على الكسب المادي المنتظر من وراء ذلك. إلا أن المادح عرف كيف يحتال على سيف الدولة ويستعطفه، ويأخذ منه ضعف ما كان يصبو إليه، " فكم أملت قال: خمس مائة درهم فأمر له بألف درهم». وكان من أثر ذلك أن أفسح المجال للذين لا يحملون من الشعر إلا اسمه، ويقلدون أصحاب المواهب والقدرات القادرة على صياغة شعر جيد؛ وامتألت الحياة الأدبية بهؤلاء الحمقى الذين يتخذون من الحمق أداة للتكسب. وقد أدرك ابن الجوزي خطورة انتشار هذه الفئة التي تحترف التصعلك والشحاذة الأدبية، ويتخذونها حرفة لهم يبتزون بها أموال الناس " 42. وقد اتخذ من أشعارهم المبتذلة حججاً ليبيّن بها أن هؤلاء لا يرقون لأن يكونوا شعراء، بل يتخذون كل السبل والحيل التي توفر لهم المال .

ذكر لنا ابن الجوزي أن بعض المغفلين « ألجأته ضرورة الشعر إلى الطلاق: وحكى بعضهم: قال: "اجتمعنا ثلاثة نفر من الشعراء في قرية تسمى طيهاتا، فشرينا يومنا ثم قلنا: ليقبل كل واحد بيت شعر في وصف يومنا، فقلت: نلنا لذيذ العيش في طيهاتا، فقال الثاني: لما احتنثنا القدح احتنثنا، فارتج على الثالث

فقال: امرأتي طالقا ثلاثا، ثم قعد يبكي على امرأته ونحن نضحك عليه " 43. إن حكاية يبين ابن الجوزي أن المغفل الذي ألجأته ضرورة الشعر إلى الطلاق، قد تعمد ذلك قصد إضحاك الناس، ولا يبالي بكرامته. وهذه الظاهرة كان لها انتشارا واسعا في العصر العباسي. نظرا لتعفن الحياة السياسية والاجتماعية؛ حيث كان الخلفاء والوزراء والأمراء ومن لحق بهم يعيشون في ترف ونعيم في بيئة ابن الجوزي، أما عامة الناس كانت تتخبط في ويلات الفقر واليأس وقد هيا هذا اليأس " لظهور طائفة بين الناس تُعرف بالمُكدين، وأول من تحدث عنهم الجاحظ في مطلع كتابه البخلاء، وهو يورد فيه أسماءهم وحيلهم في اقتناص الدراهم من الناس وبصوّر...، وهم جماعات من المتسولين وكان ينظم إليهم كثير من الأدباء والشعراء، وهم يكونون في العصر طبقة كبيرة، تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس " 44، وبذلك يضحكون الخليفة ويأخذون منه أكثر ما يأخذه شاعر بالجد.

يتبين من خلال البيت الشعري الذي أورده لنا ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين، أن اتخاذ التحامق حرفة لكسب المال كان لها صدى واسعا، وأثرا كبيرا على الصياغة السيئة للشعر، الذي يمثل عماد الفنون الأدبية العربية. ومن أمثلة هؤلاء " قال أبو سَجادة الفقيه في شعر له:

ومِنَّا الوزير، ومِنَّا الأمير ومِنَّا المُشير، ومِنَّا أنا " 45

يسعى ابن الجوزي من خلال ذكره للأشعار الصادرة عن المغفلين إلى لفت انتباه المتلقي إلى خطورة الذين يتخذون من الفن أداة للتكسب، ويتخذ هذه الشواهد كحجج، يبين بها تردى الشعر و تحوله إلى الضعف والسطحية والتفاهة في نهاية العصر العباسي الثاني؛ لأنه صار أداة في أيدي المغفلين الذين عرفوا كيف يفرضون أنفسهم بإضحاك الناس، وتسلية الحكام وأصحاب الجاه، على حساب الانحطاط بالشعر.

الحجاج بالأمثال:

تعد الأمثال من الحجج الجاهزة التي يستند إليها المرسل في دعم وتقوية حججه، لأنها تحمل قيما " تمثل

سندا أساسيا لتطوير أي حجاج والسير به نحو نتائج مقبولة، إنَّ التذكير بها يعتبر حجة في ذاته" 46. خاصة أن الأمثال تتردد على ألسنة الناس، يتداولونها ويتوارثونها، وتتناقل بين الشعوب، لذلك " لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا تغيير أوضاعها: لأنها بذلك عُرِفَتْ واشتهرت" 47. فشعبية الأمثال تمكّنها من احتلال موقع خاص في نفس قائلها وسامعها وتجعل لها مكان الصدارة من حيث الأهمية والتأثير في المتلقي. وتكمن قوة تأثيرها في الناس في إيجازها وإحكام معانيها والإيحاءات التي تتضمنها، لأن « الأمثال هي وَشْي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلّى المعاني، والتي تخيّرتها العرب، وقدمتها العجم، ونُطِقَ بها في كل زمان على كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسِرْ شيء كسِيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قالوا: أَسِيرٌ من مَثَل، قال الشاعر :

ما أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سائرٌ يَعْرِفُهُ الجاهِلُ والخابِرُ " 48

لذلك اعتمدها ابن الجوزي في دعم حججه والاستدلال على أقواله. وقد أدرك أن المثل يستطيع أن يعبر ويوحى إلى صميم الأشياء، ما لا يستطيع تعبير آخر إفادة ذلك بمثل إيجازها وملائمة مواقعها. فالرجوع إلي الأمثال ضرورة حاجية، لأنها أفكار شاعت في المجتمع وتقدمت في الزمن، وتلخص التجربة الشعبية.

ضرب الله الأمثال للناس في القرآن في مواضع عدة ليرز لهم المعاني في صور حسية، وتقريبها إلى

الأذهان في صورة قريبة، قال الله تعالى: وقال أيضا ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴾. إبراهيم 25. وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة. نظرا لدلالاتها الموحية، التي

تبعث المتلقي إلى التدبر في معانيها ومراميها، والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوم في

الإقناع.

خصص ابن الجوزي في كتابه أخبار الحمقى والمغفلين الباب السابع لـ "ضرب العرب المثل بمن عرف

حمقه وتغفيله". وقد بين فيه حمقى من ضرب بهم المثل من بني البشر، وحمقى من ضرب بهم المثل من

الحيوانات، والطيور، لكون العرب " تضرب المثل في الحمق، تارة بمن قد عرف حمقه من الناس وتارة بما ينسب إلى سوء التدبير من البهائم والطيور، وتارة بما لا يقع فيه فعل " 49. كما أن بلغاء العرب يكثر من استعمال الأمثال في شعرهم ونثرهم لما لها من قوة التأثير في الناس. لقد ذكر ابن الجوزي الكثير من الشخصيات التي لها شهرة واسعة في الثقافة الشعبية العربية، مثل جحا، وقد نسب ابن الجوزي الأمثال التي أوردها في كتابه إلى أبي هلال العسكري، لكون هذا الأخير قد ألف كتاب "جمهرة الأمثال"، وهو من أشهر الكتب التي تعد مرجعا في الأمثال العربية. والهدف من ذلك هو تقوية ودعم درجة صحة مورد الأمثال المذكورة والتصديق بها.

ذكر ابن الجوزي أمثالا لمن عرف حمقه عند العرب من البشر كأحمق من هبنقة. أحمق من بني غبشان، أحمق من جحا...، كما يذكر أمثالا عن النباتات والحيوانات، ثم يشرح سبب ضرب العرب المثل بها في حمقها. فسبب قول العرب: " أحمق من ذئبة، لأنها تدع ولدها وترضع ولد الضبع " 50. ومن الطيور التي ضرب المثل بحمقها: "وأما الطير فيقولون: أحمق من حمامة لأنها لا تُصلح عُشّها وربما سقط فانكسر، وربما باضت على الأوتاد فيقع البيض. وأحمق من نعامة، لأنها إذا مرت ببيض غيرها حضنته وتركت بيضها" 51. ومن النباتات التي يُضرب المثل في حمقها قوله:

" أحمق من رجلة، وهي البقلة الحمقاء، لأنها تتبت في مجاري السيل " 52.

من خلال الأمثلة التي ذكرناها لابن الجوزي نلاحظ أنه يربط الحمق الذي توصف به سواء البشر أو الحيوانات أو الطيور أو حتى النباتات، بتصرفاتها التي تنوه عن الغفلة وعن سوء التدبير والجهل وهذه الصفات إن اجتمعت عند أي كان هلك نفسه وغيره، وخطورة الأمر أن الأحمق لا يدرك غفلته وهذا ما يزيد الأمر خطورة. وقد سبق وأن أشرنا أن هذه الظواهر البشرية الغريبة كانت متفشية في مجتمع ابن الجوزي، وتغلغت في شتى الميادين (الأئمة، المدرسين، القضاة، المتدينين وغيرهم)، لذلك عمد ابن الجوزي إلى معالجة هذه الظواهر والالتفات إليها بالتمثيل لها بذكر أخبار من ضرب المثل بحمقه وتغليله

عند العرب .

أراد ابن الجوزي إيصال العبرة للمتلقي، لأن: " في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر، وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتبع... " 53. فمن أخبار السالفين هبنقة الأحمق: " (...) من حُمقه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وقال: أخشى أن أضلّ نفسي، ففعلت ذلك لأعرفها به. فحوّلت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه، فلما أصبح قال: يا أخي أنت أنا، فمن أنا؟ " 54. يتبين لنا من خلال ما ذكر عن هبنقة الأحمق الذي يُضرب به المثل في الحُمق، أن كل تصرفاته تدل على قصور العقل وعلى التفكير اللامنطقي، وعلى سوء التصرف. يخشى هبنقة أن يضيع نفسه وهو أمر لا يفكر فيه عاقل ثم فكر في وضع قلادة في عنقه ليعرف بها نفسه، وهي حيلة في نظر هبنقة، وفي نظر العاقل أمر غير معقول، وفي أحد الأيام حولت القلادة إلى عنق أخيه ولا غرابة في ذلك لأن القلادة شيء يمكن تداوله بين الناس، إلا أن هبنقة بقوله: "يا أخي أنت أنا، فمن أنا؟". أجزم أن لا عقل له، وهو بذلك يكون جد مناسب ليضرب به المثل في التغفيل والحمق.

أما عن حماقات جحا وهو شخصية شعبية معروفة لها قيمتها ووزنها في النوادر، وقد أشار ابن الجوزي إلى أن الجاحظ هو أول مؤلف عربي ذكر جحا في مؤلفاته، وذكر قول الزمخشري: «والحكايات عنه لا تُضبط كثرة» 55، وما يعرف عن جحا ليس التغفيل فقط بل وردت له أخبار كثيرة توحى بذكائه وفطنته، يقول ابن الجوزي " وقد روي عنه ما يدل على فطنة وذكاء إلا أن الغالب عليه التغفيل، وقد قيل: إن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات... " 56. ثم يذكر لنا ابن الجوزي على لسان المصنف الذي سمع «وجمهور ما يروي عن جحا تغفيل نذكره كما سمعناه. عن أبي الحسن: قال رجل لجحا : سمعت صراخا. قال: سقط قميصي .

الخاتمة : نفهم من هذا كله أن التداولية مهمة في تحديد الخطاب الحجاجي التداولي وهو جزء منه .

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- Molinié Georges. 1992 : Dictionnaire de rhétorique. Le Livre de Poche. Paris : Librairie Générale Française.P6.
- 2- نفسه: ص ص 6-7.
- 3 - نفسه: ص 7.
- 4- موسوعة المصطلح النقدي / المفارقة :د. سي ميوك، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، المجلد الرابع، بيروت، ط1، 1993، ص 30.
- 5- PERELMAN Chaïm et OLBRECHTS-TYTECA Lucie.1983 : Traité de l'argumentation – La nouvelle rhétorique. Bruxelles : Université de Bruxelles.P2
- 6- نفسه: ص 280.
- 7- نفسه: ص 279.
- 8- نفسه: ص 280.
- 9- BERRENDONNER Alain.1989: « De l'ironie ». In : Eléments de pragmatique linguistique. Paris : Minuit, PP. 184-185.
- 10- HUTCHEON Linda. 1981 : « Ironie, satire, parodie ». In : Poétique 46: 140-155. Paris : Seuil.P141.
- 11- مانفريد فرانك: حدود التواصل الإجماع والتنازع بين هابر ماس و ليوتار-ترجمة وتعليق عز العرب لحكيم بناني، إفريقيا الشرق، 2003، ص 8.
- 12- Alain Lempreur. 1991: L'argumentation, collectif ; Michel Meyer, université libre de Bruxelles, centre européen pour l'étude de L'argumentation, édition margada.PP 108.-109.

- 13- حدود التواصل: ص5.
- 14- ابن ظافر الشهري، عبد الهادي: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص475.
- 15- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين،. تحقيق: جمال جمعة، دار غومه للنشر، ليبيا، 2000، ص130.
- 16- طه، عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1988، ص ص 277 - 278.
- 17- اللسان والميزان ص ص: 277-278.
- 18- أخبار الحمقى: ص ص: 47-48.
- 19- استراتيجيات الخطاب: ص 473.
- 20 - Rosier, Laurence (2008) : Le discours rapporté dans tous ces états ,l'harmattan, France, 2004. P105 .
- 21- أخبار الحمقى: ص129.
- 22- استراتيجيات الخطاب: ص537.
- 23- الفلقشندی، أبو العباس أحمد (1992): صبح الأعشى، ج1، دار الكتب المصرية ، ص 191.
- 24- نفسه: ص 67.
- 25- نفسه: ص ص 65 - 66.
- 26- نفسه: ص63.
- 27- نفسه: ص191.
- 28- نفسه: ص 202.
- 29- الجاحظ أبو عثمان، عمرو: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، 1969، ج2، ص 17.
- 30- فايز ترحيني ، الإسلام والشعر، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة 1 ، 1990 ، ص84.
- 31- بلخير، عمر (2003): تحليل الخطاب المسرحي في منظور النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص227.
- 32- أخبار الحمقى والمغفلين: ص70.

- 33- استراتيجيات الخطاب: ص 544.
- 34- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ط2، أفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص 20.
- 35- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ط 2 الخانجي، القاهرة، 1989، ص ص 8 - 9.
- 36- صبح الأعشى: ص 58.
- 37- نفسه: ص ص، 281 - 282.
- * المُلْحُ: جمع مُلحة وهي أمور يُؤتى بها في آخر دروس العلم، ليذهب بها التعب الفكري، وليست من صُلب العلم في شيء.
- 38- أخبار الحمقى والمغفلين: ص ص، 16-17.
- 39- نفسه: ص 17.
- 40- عبد الله، ابن المعتز، (د-ت): طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ص ص، 201-202.
- 41- أخبار الحمقى والمغفلين: ص ص، 141-142.
- 42- شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ط2، دار المعارف، مصر، 200، ص 370.
- 43- نفسه: ص 245.
- 44- أخبار الحمقى والمغفلين: ص 141.
- 45- العصر العباسي الثاني: ص 501.
- 46- أخبار الحمقى والمغفلين: ص 143.
- 47- تحليل الخطاب المسرحي في منظور النظرية التداولية: ص 229.
- 48- صبح الأعشى ج 1، ص 302.
- 49- نفسه: ص 296.
- 50- أخبار الحمقى والمغفلين: ص 40.
- 51- نفسه: ص ص 40 - 41.

55-نفسه: ص41.

56-نفسه: ص41.

57-ابن الجوزي:كتاب الفُصَّاص تحقيق الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، الطبعة الثانية، بيروت: المكتب الإسلامي، 1988،
ص 159-160.

58-أخبار الحمقى والمغفلين: ص42.

والمُدكَّرين. تحقيق الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، الطبعة الثانية، بيروت: المكتب الإسلامي، 1988، ص 159-160.

58-أخبار الحمقى والمغفلين: ص42.

59-يراجع تهميش(1) أخبار الحمقى:ص46.

60-أخبار الحمقى:ص46.

61- Molinie (1992).pp 6-7.

62-آمنة ، محمد نصير: أبو الفرج ابن الجوزي، آراؤه الكلامية والأخلاقية، دار الشروق، القاهرة، 1987، ص 35.